

مجلة الشهاب • المجلد: 07، العدد: 03 (2021م) • ص ص 469 - 492

(ISSN: 2477-9954, EISSN: 2602-5485)

المفاهيم الصوفية المعتدلة عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره مجالس التذكير

Moderate Sufi Concepts of Imam Ibn Badis Through his Interpretation of " Madjaalis Tdkir "

ط.د/ خيرة شوية *

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية

جامعة الوادي (الجزائر)

Chouia-kheira@univ-eloued.dz

د/ حمزة بوخزنة

مخبر إسهامات علماء الجزائر في إثراء العلوم الإسلامية

جامعة الوادي (الجزائر)

boukhezna-hamza@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2021/08/30 تاريخ القبول: 2021/10/01 تاريخ النشر: 2021/11/14



ملخص:

جاءت الورقة البحثية بعنوان: المفاهيم الصوفية المعتدلة عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره مجالس التذكير، والتي تهدف إلى إبراز مدى حضور الفكر الصوفي في تفسير الإمام ابن باديس.

ليتوصل في الأخير إلى أن الإمام ابن باديس قد سار في تفسيره وفق أصول متينة أصيلة، فهو لم يهمل التفسير النقلي، ولا اللغوي، ولا العقلي، وهذا الأخير الذي توسع فيه الإمام ابن باديس، فكان تفسيره منطقيا متسلسلا، وفيه ظهرت نزعة الإمام الصوفية السنيّة السلفية المعتدلة، التي تنهل من معين القرآن الكريم، ومشكاة النبوة، وما سار عليه السلف الصالح، محاربا بذلك الصوفية الطرقية، وكل ضلالة وبدعة مختلقة تشوه الدين وتنفر الناس منه.

الكلمات المفتاحية:

المفاهيم؛ الصوفية؛ المعتدلة؛ ابن باديس؛ مجالس التذكير.

Abstract:

The study is entitled: Moderate Sufi Concepts of Imam Ibn Badis Through his Interpretation of " Madjaalis Tadkir ". It aims at highlighting the extent of the presence of Sufi thought in the interpretation of Imam Ibn Badis. It concluded that Imam Ibn Badis relied in his interpretation on solid, authentic origins, as he did not neglect the unwritten, linguistic, or mental interpretation. The latter, in which Imam Ibn Badis expanded, his interpretation was logically sequential, in which the moderate Sunni Salafist Sufi imam's tendency emerged. It is based on the Holy Qur'an, the Sunnah of the Prophet, and what the righteous predecessors followed, Imam IbnBadis confronted many of the erroneous Sufi concepts of the tariqa, fighting every misguidance and heresy that distorted the religion and alienated people from it.

Keywords:

Concepts; Sufi; Moderate; Imam Ibn Badis; Madjaalis Tadkir.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة:

إنّ علم التفسير من أول علوم القرآن ظهورا، فكان مع بدايات نزول القرآن ثم أخذ في النشأة والتطور واهتم به العلماء والمفسرون أيما اهتمام، وكيف لا وهو يتناول بالدرس البيان لكلام الله تعالى، وأصبحت التفاسير يغلب عليها ما برّز فيه المفسّر من علم، فتباينت فيما بينها من: تفسير أثري، وتفسير فقهي، وتفسير إصلاحي، وهكذا...

ومن جملة هذه التفاسير يصادفنا تفسير الإمام ابن باديس، إمام المصلحين ببلدنا الحبيب، والذي يرجع له الفضل في ترسيخ معالم الدين الإسلامي القويم، واللغة العربية، كما عُرف بتصوفه وزهده، فقد اعترِض في أحد المحافل بأنه ينكر على الطرقية، وقد كان طرقيا، فأجاب بأن ذلك علم خاص لا يعرفه إلا الخواص. ومن هذا المنطلق أردنا أن نلتمس ما مدى حضور النزعة الصوفية في تفسير الإمام ابن باديس؟ وأين يُلحظ تأثيرها في بيان الدلالات القرآنية وإبراز معانيها وقيمها السامية؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات جاءت هذه الورقة البحثية بعنوان:

المفاهيم الصوفية المعتدلة عند الإمام ابن باديس من خلال تفسيره مجالس التذكير

وقد غلب على دراستنا المنهج الوصفي والاستقرائي، لتشتمل معالجة الموضوع على ثلاثة محاور أساسية، وهي:

- الأصالة التفسيرية للإمام ابن باديس في فهم كتاب الله.
- تجليات الفكر الصوفي القويم عند الإمام ابن باديس من خلال بيان مقاصد الآيات القرآنية.
- الإمام ابن باديس ومحاربته للطرقية وأهل الضلال من خلال تفسيره.

2. الأصالة التفسيرية للإمام ابن باديس في فهم كتاب الله

لا يمكن الحكم على أيّ تفسير من التفاسير بالاعتدال، أو الشذوذ والبطلان إلا بالنظر إلى مدى اعتماده على أصول التفسير من: تفسير بالقرآن، والسنة النبوية، وأقوال السلف الصالح، وكذا مدى رجوعه للغة العربية في البيان والتوضيح لمعاني القرآن الكريم.

ولقد كان الإمام ابن باديس على درجة عالية في هذا، فقد صرّح بطريقته في التفسير ومصادره، فقال: "فقد عدنا ـ والحمد لله تعالى ـ إلى مجالس التذكير، من دروس التفسير، نقتطف أزهارها، ونجني من ثمارها، بيسر من الله تعالى وتيسير.

على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات.

معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون، أو غاص عليه علماء الخلف المتأخرون، رحمة الله عليهم أجمعين.

وعمدتنا فيما نرجع إليه من كتب الأئمة:

1- تفسير ابن جرير الطبري، الذي يمتاز بالتفاسير النقلية السلفية، وبأسلوبه الترسلي البليغ في بيان

معنى الآيات القرآنية، وبترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب.

2- وتفسير الكشاف الذي يمتاز بذوقه البياني في الأسلوب القرآني، وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، والتنظير لها بكلام العرب، واستعمالها في أفانين الكلام.

3- وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية، وتوجيهه للقراءات.

4- وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية، ومقالات الفرق، والمناظرة والحجاج في ذلك.

إلى غير هذا مما لا بد لنا من مراجعته من كتب التفسير والحديث والأحكام، وغيرها مما يقتضيه المقام.

نقول هذا؛ ليعرف الطلبة مصادر درسنا، ومآخذ ما يسمعونه منا." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 41)

وقال في موضع آخر: " ويكون عمله - أي المفسِّر - في كتاب الله هو: التفهم والتدبر لآياته، والتفطن لتنبيهاته، ووجوه دلالاته، واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه، على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها، وما جاء من التفاسير المأثورة، وما نقل من مفهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم، المشهود لهم بذلك من أمثالهم." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 286)

فنلحظ من هذا مدى تركيز الإمام في تفسيره على التفسير النقلي، والتفسير اللغوي، والتفسير العقلي.

كما لمّح إلى خطورة القول في التفسير وعظم أمره، فقال: " وإذا نظرنا إلى قصورنا، وخطورة مقام الكلام على كلام الله تعالى، أحجمنا. وإذا رأينا إلى فضل الله، وثقتنا به، وحسن قصدنا- في خدمة كتابه- أقدمنا. وهذا الجانب الكريم أرجح عندنا، فنحن نقدم معتمدين على الله تعالى سائلين منه تعالى لنا ولكم أن يوفقنا إلى حسن القصد، وصحة الفهم، وصواب القول، وسداد العمل." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 42)

وقد أكّد في أكثر من موضع على ضرورة الرجوع للقرآن والسنة للبيان والتوضيح، وهذا بعض منها:

- " فعلينا أن نطلب هذا كله من الكتاب والسنة، ونجهد في تتبعه وأخذه واستنباطه منهما، وندأب على العمل بما نجده، والتحلي به، والالتزام له." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 325)
- " فعلينا- إذن- أن يكون أول فزعنا في الفرق والفصل إليه. وأن يكون أول جهدنا في استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه، مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لآليه." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 155)

كما أكّد على المتصدر لتفسير كتاب الله العزيز أن يتوفر على علوم الآلة، وضرورة الاطلاع على التفاسير السابقة، وكذا كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها.(باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 174)

وفيما يلي إيراد لطائفة من النماذج التي تبرز لنا أصالة التفسير عند الإمام ومدى مراقبته لكل ما سبق في فهمه لمعاني الآيات وبيان مراد الشارع الحكيم منها دون تقوّل ولا شطط أو تسيب فيما يورده من آراء

وأقوال.

1.2. تفسير القرآن بالقرآن:

يعدّ تفسير القرآن بالقرآن من أحسن طرق التفسير، ولقد اعتنى بهذا الجانب الإمام ابن باديس، وأولاه أهمية بالغة، وهذا شيء مما جاء في تفسيره:

• ربط الإرسال للرسل بالإنذار، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: 20]

"(الإرسال) هو البعث لتبليغ شيء أو قضائه، وفي لسان الشرع: هو إنزال الله تعالى الوحي على من اصطفاه من خلقه لينذر به من أمره بإنذار. من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾ [الشعراء: 192– 194]. فالرسالة وحي مع أمر بالتبليغ." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 161)

• التفسير بمعهود القرآن واستعماله، فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [الفلق: 1]

" الأمر المفرد للنبي عليه السلام.

ومن حسن الأدب في مقدرات القرآن، أن تقدر في مثل هذا الأمر: أيها الرسول، أو أيها النبي، لأنهما الوصفان اللذان نطق بهما القرآن في نداء النبي عليه الصلاة والسلام، وأن لا نقدّر يا محمد كما هو جار على الألسنة وفي التصانيف؛ فإن القرآن لم يخاطبه باسمه.

والأمر لنبينا أمر لنا، لأننا المقصودون بالتكليف، ولا دليل على الخصوصية، فهو في قوة: قل أنت، وقل لأمتك يقولون." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 371)

2.2. التفسير بالسنة النبوية:

قال الإمام ابن باديس: (وما أحسن التفسير عندما تعضده الأحاديث الصحاح!!.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 187)

فقد بذل جهده في التفسير بالسنة النبوية الشريفة، فهو ممن يرى أن النبي ﷺ فسّر القرآن الكريم، وبيّنه للناس أتمّ البيان، سواء بأقواله، أو أفعاله، أو تقريره وصمته عما يصدر من الصحابة الكرام.

ولهذا ترى الكثير من الأحاديث النبوية التي لا تُعدّ تفسيرا للنبي ﷺ ولكنها تتحدث عن نفس ما جاءت الآيات بصدد بيانه، أو لها علاقة بوجه من الوجوه بالآية المفسَّرة، من ذلك نذكر ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات: 50]، حيث قال: (بيان نبوي قولي:

قال عليه الصلاة والسلام فيما يقال عند النوم: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك». (البخاري، 1422هـ، صفحة 58/1) (مسلم، دون تاريخ، صفحة 2081/4)

والملجأ هو المهرب الذي يهرب إليه، والمنجى هو مكان النجاة؛ فبين لنا أنه لا يكون الهرب إلا إلى الله، ولا تكون النجاة إلا بالهرب إليه، فمن هرب لغيره كان من الهالكين.

كما بين لنا أن كل ما يجري في هذا العالم، فهو بخلقه بقدره؛ فلا مهرب ولا نجاة مما خلق وقدر إلا

إليه.

بيان نبوي عملي:

روى أحمد وابن جرير عن حذيفة بن اليمان، أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى وفزع للصلاة. (ابن حنبل، 1321هـ/2001م، صفحة 330/38)

يعني إذا نزل به مهم أو أصابه غم فزع للصلاة.

فبين لنا بالفعل أن الفرار إلى الله بالتلبس بطاعته، وصدق التوجه إليه والدعاء والتضرع والخشوع له، والاستسلام لدينه وشرعه والإخلاص في عبادته والاعتماد عليه. وذلك كله موجود على أكمله في الصلاة التي هي عمود الدين، ومظهر كماله. جعلنا الله والمسلمين من الفارين إليه والمقبولين لديه. آمين.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة: 364)

وقد شدّد القول على من يستدل بالحديث دون بيان رتبته، ولا ذِكْر لمخرجه، الأمر الذي أدّى لاختلاط الحق بالباطل، وتَجرأُ الغبي والجاهل على السنة النبوية، الذين بلغ بهم الأمر إلى نسبة الأحاديث إلى كتب الإسلام المتفق عليها ولا وجود لها فيها! (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة: 214)

3.2. التفسير بأقوال السلف الصّالح:

اهتم الإمام ابن باديس بأقوال السلف الصالح في التفسير، وهذه أمثلة لذلك:

• قال في تقسير قوله تعالى: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [النمل: 21]: "بنتف ريشه، هكذا فسره ابن عباس وجماعة من التابعين." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 268)

• وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء: 105]: (﴿ٱلْأَرْضَ﴾ جنس الأرض الدنيوية، لأن هذا اللفظ موضوع لها، فإذا أطلق انصرف إليها، وبهذا فسَّرها ابن عباس من طريق علي بن أبي طلحة وهي أصح طرقه.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 346)

كان الإمام يتحرى في كل ما ينقل الصحة، ناقلا حصيفا ومتهيّبا في إيراد الروايات منتقدا لها بفكر متّقد، وهذا ظاهر في تحذيره من الإسرائيليات، فقال: (رويت في عظم ملك سليمان روايات كثيرة ليست على شيء من الصحة، ومعظمها من الإسرائيليات الباطلة التي امتلأت بها كتب التفسير، مما تلقى من غير تثبت ولا تمحيص، من روايات كعب الأحبار ووهب بن منبه، وروى شيئا من ذلك الحاكم في مستدركه، وصرح الذهبي ببطلانه.

ومن هذه المبالغات الباطلة أنه ملك الأرض كلها مشارقها ومغاربها، فهذه مملكة عظيمة بسبأ كانت مستقلة عنه، ومجهولة لديه، على قرب ما بين عاصمتها باليمن وعاصمته بالشام.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 272)

4.2. التفسير اللغوي:

اهتم الإمام ابن باديس بالبيان اللغوي للآيات، فما من آية إلا ويبدأ بشرح ألفاظها أولا. ولذلك لم يخل تفسيره من كثرة المباحث اللغوية، سواء كان البيان نحويا، أو صرفيا، أو بلاغيا ...

ونكتفي بذكر مثال على ذلك من تفسيره، حيث قال عند قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان: 72]: " (الشهود): هو الحضور الذي يكون فيه إدراك بالحواس أو بالبصيرة.

و(الشهادة): هي الإخبار عن علم حصل عن شهود. و﴿لا يشهدون﴾ يحتمل أن يكون من الشهود، وأن يكون من الشهادة. و ﴿الزور﴾ أصله الميل ويطلق على الكذب، لأنه ميل عن الحقيقة، وعلى كل باطل من الأقوال والأعمال، لأنه ميل عن الحق.

إذا كان ﴿لا يشهدون﴾ بمعنى لا يحضرون، فالزور مفعول به. وإذا كان بمعنى لا يخبرون فالزور مفعول مطلق بعد حذف المضاف. والأصل: ولا يشهدون شهادة الزور.

المعنى:

على الاحتمال الأول: والذين لا يحضرون مشاهدة الباطل والإثم في كل مجلس تتعدى فيه الحدود، أو تنتهك فيه الحرمات، أو يحكم فيه بالجور أو تعظم فيه الطواغيت، أو يدعى فيه بدعوى الجاهلية، أو تحيى فيه معالم الوثنية، أو تطمس فيه السنة النبوية، أو يدعى فيه أحد مع الله، أو يضرع إلى سواه.

وعلى الاحتمال الثاني: والذين لا يشهدون شهادة الزور ولا يخبرون إلا بالحق الواقع.

ترجيع وترجيح:

يلزم من أنهم لا يشهدون مشاهدة الباطل أنهم لا يشهدون بالزور لوجهين:

الأول: لأنهم إذا كانوا لا يحضرون مجالس الباطل فبالأحرى أنهم لا يقولونه.

والثاني: أن مشهد شهادة الزور من مشاهد الباطل التي لا يحضرونها؛ فيكون الوجه الأول أولى لأنه أشمل." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 229، 230)

والذي نخلص إليه من خلال كل ما عرضناه أن الإمام ابن باديس كان يصدر في تفسيره للقرآن الكريم على أصول متينة أصيلة، فكان تفسيره تفسيرا سلفيا. (ينظر العرابي و البيرة، 1408-1409هـ، صفحة 100) (وفركوس، 1435هـ/2014م، صفحة 22).

ومع هذه الأصول التفسيرية الرصينة إلا أنّ الإمام لم يكن منفصلا عن البيئة التي وجد فيها، وهي بيئة كثرت فيها الطرقية التي كان لها تأثير كبير في المجتمع الذي أدارت فيه رحى التجهيل قبضتها برعاية الاستعمار الفرنسي الذي ما فتئ على تحريكها، فاستمد الإمام بيانه للآيات القرآنية من أصول متينة راسخة في علم التفسير مع إسقاطها على ظروف الواقع المعاش فجاء تفسيره معالجا لكثير من المفاهيم الصوفية التي أفرغت من محتوياتها فاستبدلت بالبدع والضلالات التي لا تمت للدين بصلة. فأقام الإمام ميزان الحق في بيانها لتتجلى تلك المفاهيم والمصطلحات الصوفية لقارئ تفسيره متصلة بالصراط فظهرت صافية المورد بعيدة عن كل شطط وغلو وخرافة وبدعة . ولنا في العنصر الموالي وقفة مع كثير من تلك المصطلحات والمفاهيم الصوفية التي أعاد الإمام تغذيتها بروح العقيدة الإسلامية.

3. تجليات الفكر الصوفي القويم عند الإمام ابن باديس من خلال بيان مقاصد الآيات القرآنية.

هاهو الإمام يحدث عن نفسه حين كدّر خاطره تذكُّرُ صندوق الطلبة وهو فارغ، حيث قال: (ولكنني سرعان ما أزيله بكلمتي التي أُلهمت إلى قولها منذ نحو ربع قرن: (نحن على الفيض الرباني) ولن نزال عليه إن شاء الله.) (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 336/3)

وهذه الكلمات قالها وهو مع الوفد الإسلامي الجزائري إلى الحكومة الفرنسية وأحزابها وصحافتها، وكان ذلك سنة 1936م، مما يعني أنه كان على طريق التصوف مع بدايات تعليمه، ولربما أخذها من أسرته التي كانت " تنتمي إلى الطريقة القادرية." (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 74/1)

وقد اعتُرِض الإمام ابن باديس في أحد المحافل، وقيل له: كيف تنكر على الطرقية، وقد كنت طرقيا؟ فأجاب بأن ذلك علم خاص لا يعرفه إلا الخواص. (طالبي و حداد، صفحة 165)

وفي هذا إشارة إلى علم التصوف، وأنه صوفيّ لا طرقيّ، وقد قال جامعُ آثاره أنه "صوفي زاهد لا كمتصوفة أهل زمانه وزهّادهم." (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 92/1)

كما وصفه المفكر مالك بن نبي في مقدمة كتاب آثار ابن باديس، فقال: "لقد كان ابن باديس مناظرا مفحما، ومربيّا بنّاء، ومؤمنا متحمسا، وصوفيّا والها، ومجتهدا يرجع إلى أصول الإيمان المذهبية، ويفكر في التوفيق بين هذه الأصول توفيقا عزب عن الأنظار إبان العصور الأخيرة للتفكير الإسلامي." (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 10/1)

ونحاول ها هنا الإجابة على جملة من التساؤلات التي أثارتها في أنفسنا معرفةُ أنّ الإمام ابن باديس كان صوفيا، منها: ما هو المسار الذي سار عليه الإمام في تصوفه؟ وما مرجعيته فيه؟ وفيم تتجلى لنا ملامح التصوف في تفسيره؟ وكيف أثرت على تفسيره؟

1.3. مرجعية الإمام ابن باديس في التصوف

نحاول في هذه النقطة أن نقف عند بعض الشخصيات التي تأثر بها الإمام ابن باديس في التصوف، وكان لها حضور واضح في تفسيره، وكذا المسار الذي سار عليه في تصوفه.

فمن الشخصيات الإمام عبد الكريم بن هوزان القشيري، فقد وصفه الإمامُ ابن باديس بـ " شيخ الصوفية في زمانه." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 267)

كما نقل عنه قولا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾ [النمل: 20]، وقد مدح تفسيره فقال: (مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أجل علوم القرآن وذخائره). (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 267)

ومن الذين تأثر بهم كذلك، الإمام فخر الدين الرازي، وقد كان تفسيره من المصادر التي اعتمد عليها الإمام ابن باديس في تفسيره، حيث قال وهو يعدد التفاسير التي أخذ منها: (وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية، مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان، وفي العلوم الكلامية، ومقالات الفرق، والمناظرة والحجاج في ذلك.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 41)

وذكره كذلك في تفسيره فقال: (ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم، ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، فما ازدادوا إلا شكا، وما ازدادت قلوبهم إلا مرضا، حتى رجع كثير منهم في أواخر أيامهم إلى عقائد القرآن، وأدلة القرآن، فشُفوا بعد ما كادوا، كإمام الحرمين، والفخر الرازي." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 197، 180)

وفي هذا تبرئة لذمة الإمام فخر الدين الرازي، الذي قيل عنه أنه فيه كل شيء إلا التفسير.

وقد " كان تصوف الرازي سنيا معتدلا بعيدا عن التّصوف الباطني، يهدف إلى تربية الإنسان وتوجيهه إلى الطّريق السليم." (بن يمينة، 2015، صفحة 245)

ولقد كان الإمام ابن باديس متأثرا بالغزالي، ويسمي كتابه (إحياء علوم الدين) بكتاب الفقه النفسي. (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 92/1)

وقد ذكر هذا في أثناء تفسيره لسورة الفلق، فقال: (وفي هذه الآية مع النهي إرشاد إلى علاج الحسد، فإن الحسد مرض نفساني معضل، ولكنه كغيره من الأمراض النفسية يعالج.

وقد وصف الحكماء له أنواعا من العلاج، فصلتها كتب السنة، وكتب الفقه النفسي ككتاب الإحياء للغزالي." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 380)

ومن الشخصيات التي تأثر بها الإمام ابن باديس في تفسره كذلك، أبا بكر بن العربي، فقد قال: (أما ابن العربي فهو حكيم إسلامي، وفقيه قرآني، وعالم سني- حقيقي- لا يبني أنظاره إلا على أصول الإسلام، ودلائل الكتاب والسنة.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 213)

ويظهر تأثره بأبي بكر بن العربي من حيث أنه لم يسلك مسلك الفلاسفة، ولا منهج المتكلمين، وإنما نهج طريق القرآن في الاستدلال، وأساليبه في الرد على الحجاج، وذلك المنهج يتلائم مع الفطرة الإنسانية، فتستجيب له وتطمئن إليه وتميل نحوه وتركن. (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 92/1)

وأما مسلك الإمام في التصوف فلا يمكن الوقوف عليه بوضوح تام، فهو بصدد تفسير آيات الكتاب العزيز، وقد كان كثيرا ما يورد من المضامين الصوفية تحت عنوان سلوك ونحوها، ولعل المقالة التي تُظهر مسلك الإمام في تصوفه هي التي أتت عند تفسيره للآيات الخمس الأولى من سورة يس، حيث قال:

" لما ضل الخلق عن طريق الحق والكمال، الذي يوصلهم إليه: إلى مرضاته والفوز بما لديه، أرسل إليهم الرسل ليعرفوهم بأن ذلك الطريق هو الإسلام، ويكونوا أدلتهم في السير، وقادتهم إلى الغاية، وأنزل عليهم الكتب لينيروا لهم بها الطريق، ويقودوهم على بصيرة، ويزكوهم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يهلك عليها إلا من ظلم نفسه فحاد عن السواء، أو تخلف عن القافلة فكان من الهالكين.

فالقافلة هم الخلق، والطريق هو الإسلام، والأدلة هم الرسل، والمصابيح هي الكتب، والغاية هو الله جل جلاله.

السلوك:

فعلى من يريد النجاة من المهالك والفوز بأسنى المطالب وأعلى المراتب، أن ينضم إلى القافلة الربانية،

يتعاون مع أفرادها، ويقوم بحق الرفقة فيها، ويعد نفسه جزءا منها، لا سلامة له إلا بسلامتها؛ فهو يحب لكل واحد منها ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها، ويهديه إلى ما يهديها إليه من خير؛ ويقيه مما يقيها منه من سوء.

وأن يطيع أولئك الأدلة، ويقتفي آثارهم، وينزل بنزولهم، ويرتحل بارتحالهم، وأن يرجع في معرفة وجوه السير وأصنافه وأوقاته ومنازله إليهم، دون أدنى اعتراض ولا مخالفة.

ويقابل ما يتحملونه من مشاق الدلالة، ومتاعب القيادة بغاية ما يستطيع من الأدب معهم، والتعظيم والانقياد لهم، والمحبة فيهم، وحسن الثناء عليهم، وطلب عظيم الجزاء من الله تعالى لهم على عظيم إحسانهم.

وأن يلزم ذلك الطريق، ويسير في سوائه غير مائل إلى جنباته، ولا ذاهب فيه بنياته، لا مفرطا في السير يسبق الرفقة فينفرد بلا دليل، ولا مفرطا فيه فيتخلف عنها بلا معين، نمطا وسطا مع الجماعة، لا من الغلاة ولا مع المقصرين.

وأن يستنير بما رفعه أولئك الأدلة من مصابيح الهداية، وأن يسير تحت أنوارها الساطعة، مفتح البصر للاستضاءة بها، غير مغلق الأجفان عنها، متعرفا بها أديم الأرض، وموقع قدمه منها.

وأن يعرف عظيم الغاية التي هو سائر إليها، فيقصر همه كله في الوصول إليها، ويحضرها قلبه في كل لحظات سيره ليسرع مع الرفعة إليها، وتخف عليه مشاق الطريق وأتعابها، ويعذب لديه كل ألم في الانتهاء إليها.

فبسلوك هذا الطريق القويم، بدلالة الرسول الكريم، وأنوار الكتاب المبين، إلى رب العالمين الرحمن الرحيم- كمال الإنسان العملي المبني على الكمال العلمي.

وقد اشتملت هذه الآيات على ذكر السالكين، وهم المنذَرون، وعلى الدليل وهو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى الطريق وهو "الصراط المستقيم" المنزل من الله، وعلى ما يبين الطريق، وهو القرآن الحكيم" (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 290، 291)

2.3. توظيف المصطلحات والتعابير الصوفية في تفسيره

لا يمكننا ملاحظة وتمييز الفكر الصوفي لدى الإمام ابن باديس، إلا بتتبع التعابير والمصطلحات الصوفية في تفسيره، إذ إن للصوفية مصطلحات تعبر عنها ألفاظ وكلمات وتراكيب لها معان خاصة ومطالب مخصوصة غير ما يدل عليه ظاهرها، أو تتضمن هذه الكلمات والألفاظ زيادة على مدلولاتها الأصلية معان أعمق وأكثر من مفهومها ومدلولها الظاهر بداهة ولأول وهلة، فإنها لم توضع إلا لنوع معين وقسم خاص من المفاهيم والمقاصد الغير متبادر إليها الذهن، فلا يدرك أبعادها ولا يفهم مطالبها إلا من كان له معرفة وإلمام، وعلم وإدراك بمصطلحات القوم. (إلهي ظهير، 1426هـ/2005م، صفحة 298)

ولقد كثرت هذه الأخيرة في تفسير الإمام ابن باديس، ولعل هذا راجع لمحاربته الطرقية بمصطلحاتهم وتعابيرهم، من باب اجتذابهم للحق، وإعادتهم لجادة الصواب، وتبيين التصوف المعتدل النابع من الاقتداء بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وهنا نورد بعضا منها على سبيل التمثيل لا الحصر:

✓ محبة الله سبحانه وتعالى ومجاهدة النفس للرقي بها لأعلى درجات الكمال،

ونَلمح هذا مثلا في أقواله الآتية:

1. "إن الأرواح النورانية الطاهرة السامية لا لذة لها حقيقية في هذا العالم الفاني المادي المنحط، وإنما لذتها الحقيقية في عالمها العالي الأقدس، وفي الرفيق الأعلى الأطهر، وفي معاشرة أمثالها من النفوس الطيبة الزكية، في ذلك القدس الأسنى، فهي دائمة الشوق إليه، والانجذاب نحوه." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 265)

2. "هذا الرب الكامل المكمل، المنعم المتفضل القدوس، هو الذي أنزل هذا الفرقان. فإذا أردت أن ترقى في درجات الكمال، وتظفر بأنواع الإنعام وتزكي نفسك الزكاء التام، فعليك بهدى هذا الفرقان، فهو بساط القدس، ومعراج الكمال، ومائدة الاكرام." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 154)

3. "وما دام الإنسان مجاهدا في تزكية نفسه بهذين الأصلين، فإنه بالغ أملا ورجاء ـ بإذن الله ـ درجة الكمال." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 78)

4. " إن الذات الأقدس الموصوف بالكمالات، المفيض للإنعامات، تتعلق به قلوب المحبين، موصوفا بكمالاته وإنعاماته التي منها ثوابه وجزاؤه، وتلك المحبة تبعث على خدمته بطاعته، والتقرب إليه بأنواع العبادات.

وأما عبادة الذات مجردا عن الإنعامات- فهو نوع من التعطيل في الاعتقاد، والتقصير في الشهود." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 210)

✓ المشاهدة عند الصوفية هي: مطالعة القلب للجمال القدسي، والمشاهدة صفة العبد، والتجلي صفة الرب سبحانه وتعالى، وقيل هي تجلي الحقائق بلا حجاب لكن مع خصوصية. (حمدى، 2000م، صفحة 86)

ونجد هذا المصطلح في تعبيرات الإمام ابن باديس، نذكر منها:

1. "وإذا أخلصت في رجائك وخوفك هانت عليك نفسك فقمت في طاعته مجاهدا لا يردك معارض، ولا تأخذك في الله لومة لائم. وصغرت في نظرك العوالم كلها فنطقت بقولك: "الله أكبر" نطق عالم واجد مشاهد" (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 52)

2. "إن خوف الإجلال لا يخرج به العبد عن ضعف وذل العبودية، ومشاهدة قوة وفضل الربوبية، فلا يتجرد خوفه الإجلالي عن خوف المؤاخذة: المؤاخذة التي ليست نارا ولا عذابا، ولكنها مؤاخذة مناسبة لذلك المقام العالي." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 213)

3. وأما عبادة الذات مجردا عن الإنعامات- فهو نوع من التعطيل في الاعتقاد، والتقصير في الشهود." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 210)

4. "من مقتضى مراقبة الله تعالى، مشاهدته: أي مشاهدة جلاله وجماله؛ جلاله بصفات القهر والبطش والملك والسلطان، وجماله بصفات الفضل والرحمة والإحسان؛ وبصدق المشاهدة لصفات الجلال يخاف

العبد ويخشى؛ وبصدق المشاهدة لصفات الجمال يرجو ويطمع. فصدق الشهود لا بد معه من الرجاء والخوف.

وإذا غاب العبد عن الشعور بالموجودات، فإنه لا يغيب عن مشاهدة جلال وجمال الذات، الباعثين للخوف والرجاء. وإذا لم يشهدهما وزعم أنه يشهد الذات مجردا .. فإنه لم يكن في الحقيقة مشاهدا، بل كان غافلا معطلا جامدا.

وأما غيبوبة العابد عن نفسه- إن كانت- فإنها حالة عارضة غير ثابتة، وليست مشروعة لا بنص من آية ولا من حديث، فضلا عن أن تكون فاضلة كاملة.

فالحديث دل على المراقبة والمشاهدة الشرعيتين، اللتين يكون العبد عابدا العبادة الشرعية، الموضوعة على الرجاء والخوف حسب الأدلة المتقدمة." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 215)

وفي هذا المثال الأخير نجد مصطلحا آخر للصوفية، ألا وهو الغيبة، والتي تعني عندهم أن يغيب المرء عن ما حوله من الخلق، وأن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها. (إلهي ظهير، 1426هـ/2005م، صفحة 299)

- ✓ المقام عند الصوفية: " هو استفاء حقوق المراسم، فإنه لم يستوف حقوق ما

فيه من المنازل لم يصح له الترقي إلى ما فوقه، كما أن من لم يتحقق بالقناعة حتى يكون له ملكة لم يصح له التوكل، ومن لم يتحقق بحقوق التوكل لم صح له التسليم، وهلم جرا في جميعها، وليس المراد من الاستفاء أن لم يبق عليه بقية من درجات المقام السافل حتى يمكن له الترقي إلى العالي، فإن أكثر بقايا السافل ودرجاته الرفيعة إنما يستدرك في العالي، بل المراد تملكه على المقام بالتثبت فيه بحيث لا يحول فيكون حالا وصدق اسمه عليه بحصول معناه، بأن يسمى قانعا ومتوكلا وكذا في الجميع، فإنه سمى مقاما لإقامة السالك فيه." (الكاشاني، 1413هـ/1992م، صفحة 107، 108)

ونجد لهذا المصطلح حضورا في كلام الإمام ابن باديس، منها نذكر:

1. "وان كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الأعظم؛ فلهم جزاؤهم: من مقامات القرب، والزلفى، والقبول، والرضا، على ما يناسب منازلهم، جزاء بما كانوا يعملون." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 1412)

2. "وهذه المنازل والمقامات لا يدخلها العبد إلا برحمة من الله بتيسير لأسبابها، وتفضل عظيم." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 264)

3. "فلتكن عند قراءته في انتباه، وإقبال على استيعاب لفظه، وتفهم معناه، فإن التالي للقرآن والسامع له في حضرة الرب على بساط القرب، والغفلة في هذا المقام من قلة الأدب." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 288)

- ✓ السالك: " هو السائر إلى الله، المتوسط بين المريد والمنتهي ما دام في السير." (الكاشاني، 1413هـ/1992م، صفحة 119)"

ولهذا المصطلح كذلك حضور في تفسير الإمام ابن باديس، من ذلك قوله:

"هؤلاء السالكون، وما ذكر من أعمالهم وأحوالهم هو سلوكهم؛ ولما سلكوا الصراط المستقيم، بالعمل المستقيم، انتهى بهم السير إلى أحسن قرار ومقام، إلى دار النعيم المقيم، في جوار الرحمن الرحيم." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 243)

الملاحظ في هذه المصطلحات والتعابير أنها تتقاطع بشكل كبير مع مصطلحات وعبارات الصوفية، ولكن جاء توظيفها عند الإمام توظيفا يتسم بالاعتدال في بيان مراد الله دون إسراف ولا شطط ولا إيغال في المعنى يُخرج عن الفهم والبيان كما نلاحظه عند بعض من أصحاب التصوف في كتبهم. وهو بهذا الطرح يمزج بين صفاء الكلمة والعبارة وروحانية المعنى في تفسير كتاب الله، وعليه جاء هذا التفسير قريب المأخذ سهل المنال لكل من قصده ورامه.

3.3. التفسير الإشاري عند الإمام ابن باديس

لقد ألمح الإمام ابن باديس إلى التفسير الإشاري بقوله: (فالآية من كتاب الله، والأثر من حديث رسول الله، تجد فيه من أصول الهداية، ودقيق العلم، ولطيف الإشارة في لفظ بين وكلام بين- ما فيه الكفاية وفوق الكفاية لمن أوتي العلم ومنح التوفيق.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 61)

وكذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾ [سبأ: 19]، حيث قال: (فإن المفسرين السطحيين يحملونه على ظاهره، وأي عاقل يطلب بعد الأسفار؟!" (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 399)

وهو مع هذا لا يرى القول بالباطن المخالف لظاهر الآي، ولا يذهب في التفسير مع أقوال الفلاسفة والمتكلمين، ويجعل هذا من هجر القرآن، فقد قال: (أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية، فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه.

لقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه.

ومما ينبغي لأهل العلم أيضا- إذا أفتوا أو أرشدوا- أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم، ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته، ويعرفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائما على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب، وأثر في النفوس.

فإلى القرآن والسنة - أيها العلماء - إن كنتم للخير تريدون.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 105)

وقال في موضع آخر: (فهجرنا ذلك كله، ووضعنا أوضاعا من عند أنفسنا، واصطلاحات من اختراعاتنا، خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع، وعن السنة البيضاء إلى الأحداث والبدع، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي، والتخيل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 174)

ويرى الإمام ابن باديس أن التفسير الإشاري من أجلّ علوم القرآن وذخائره، ويكون صحيحا مقبولا إذا استجمع شروطا ثلاثة، وهي:

1- أن يكون هذا التفسير معاني صحيحة في نفسها؛

2- ومأخوذة من التركيب القرآني أخذا عربيا صحيحا؛

3- ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع.

أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة، وخصوصا الأول والثاني؛ فهو الذي لا يجوز في تفسير كلام الله، وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية: كتفسير ابن عبد الرحمن السلمي من المتقدمين، والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين. (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 267، 278)

وعلى هذا فإن التفسير الإشاري الذي يعتمد على إشارات تُلمح لأرباب السلوك، وفيوضات وإلهامات ربانية معدومة، ولا أثر لها في تفسير الإمام ابن باديس، والذي يحل محلها هو تفسير عقلي منطقي يسير فيه بتسلسل سلس، منطلقا من معتقدات وثوابت ومقررات معلومة من الدين بالضرورة، ليوصلك إلى قناعات بتفسيره ورضاك به.

وهذه بعض منها:

• جاء في تفسير الآية ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: 53].

"اللسان أداة البيان، وترجمان القلب والوجدان.

والكلام به يتعارف الناس ويتقاربون، وبه يتحاجون ويتفاضلون، ولولاه لما ظهرت ثمرات العقول والمدارك، ولما تلاحقت الأفكار والمشاعر، ولما تزايدت العلوم والمعارف، ولما ترقى الإنسان في درجات أنواع الكمالات، ولما امتاز على بقية الحيوانات.

فهو رابطة أفراد النوع الإنساني وعشائره وأممه. وبريد عقله وواسطة تفاهمه.

فإذا حسن قويت روابط الألفة، وتمكنت أسباب المحبة، وامتد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم. وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم، وتشابكت الأيدي في التعاون والتآزر.

ويعني العالم من وراء ذلك تقرر الأمن واطراد العمران.

وإذا قبح كان الحال على ضد ذلك:

فالكلام السيء قاطع لأواصر الأخوة، باعث على البغضاء والنفرة، يبعد بين العقول فتحرم الاسترشاد والاستعداد والتعاون، وبين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة، وهما أشرف ما تتحلى به القلوب، وإذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الألفة والتعاون، وحلت القساوة والعداوة، وتبعهما التخاصم والتقاتل.

وفي ذلك كل الشر لأبناء البشر.

فالمحصل للناس سعادتهم وسلامتهم، والمبعد لهم عن شقاوتهم وهلاكهم- هو القول الحسن.

ولهذا أمر الله تعالى نبيه- صلى الله عليه وآله وسلم- أن يرشد العباد إلى قول التي هي أحسن، فقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

والعباد المأمورون هنا هم المؤمنون لوجهين:

الأول: أنهم أضيفوا إليه وهذه إضافة شرف لا يكون إلا للمؤمنين به.

الثاني: أن الذين يخاطبون بهذا الإرشاد ويكون منهم الامتثال إنما هم من حصلوا أصل الإيمان.

و﴿ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ هي الكلمة الطيبة، والمقالة التي هي أحسن من غيرها فيعم ذلك ما يكون من الكلام في التخاطب العادي بين الناس، حتى ينادي بعضهم بعضا بأحب الأسماء إليه.

وما يكون من البيان العلمي فيختار أسهل العبارات وأقربها للفهم حتى لا يحدث الناس بما لا يفهمون، فيكون عليهم حديثه فتنة وبلاء.

وما يكون من الكلام في مقام التنازع والخصام فيقتصر على ما يوصله إلى حقه في حدود الموضوع المتنازع فيه، دون أذاية لخصمة، ولا تعرض لشأن من شؤونه الخاصة به.

وما يكون من باب إقامة الحجة وعرض الأدلة، فيسوقها بأجلى عبارة وأوقعها في النفس، خالية من السب والقدح، ومن الغمز والتعريض، ومن أدق تلميح إلى شيء قبيح.

وهذا يطالب به المؤمنون سواء كان ذلك فيما بينهم، أو بينهم وبين غيرهم." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 112. 114)

• وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الإسراء: 53]، قال:

"(نزغ الشيطان) وسوسته ليهيج الشر والفساد، وعداوته باعتقاده البغيض، وسعيه في جلب الشر والضر، وإبانته لعداوته بإعلانه لها كما علمنا القرآن.

وهو يلقي للإنسان كلمة الشر والسوء، ويهيج غضبه ليقولها، ويهيج السامع ليقول مثلها، وهكذا حتى يشتد المراء ويقع الشر والفساد.

ولون آخر من نزغه، وهو أنه يحسن للمرء قول الكلمة التي يكون فيها احتمال السوء، ويلح عليه في قولها، ويبالغ في تحسين الوجه السالم منه، وفي تهوين أمر وجهها القبيح حتى يقولها. فإذا قالها عاد لسامعه بالنزغ يطمس عنه الوجه السالم منها، ويكبر له الوجه القبيح، ولا يزال به يثير نخوته، ويهيج غضبه، حتى يثور فيقع الشر والفساد بينه وبين صاحبه.

فحذر الله تعالى عباده من كيده حتى يحترسوا منه إذا تكلموا وإذا سمعوا، فيتباعدون احتماله له، ويتجاوزون عن سيئة الصريح ما أمكن التجاوز." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 115)

• وورد في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩ ﴾ [الإسراء: 79]

"قد جعل الله تعالى جزاء نبيه- صلى الله عليه وآله وسلم- على تهجده، وخلوته بربه في مناجاته، هذا المقام الذي يحمده فيه الخلق، ويتقبل فيه شفاعته، ويستجيب دعوته، ويفتح عليه فيه بمحامد من ذكره، لم يفتح عليه بها قبل.

ففي هذا تنبيه للمؤمنين على حسن عاقبة القائمين لربهم في جنح الليل، وما يكون لهم من مقامات عند ربهم على حسب منازلهم. فكما كان المؤمنون ملحقين بنبيهم- صلى الله عليه وآله وسلم- في مشروعية هذه العبادة، كذلك هم ملحقون به في حسن الجزاء عليها.

وإن كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الأعظم؛ فلهم جزاؤهم: من مقامات القرب، والزلفى، والقبول، والرضا، على ما يناسب منازلهم، جزاء بما كانوا يعملون." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 141)

• وفي تفسير الآية ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ ﴾ [الفرقان: 66]، قال:

"إن جهنم هي أقبح مستقر وأقبح مقام. وإن الدنيا هي مطية الآخرة؛ فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا، ساء كذلك مستقره ومقامه في الآخرة.

وإن ملازمة العذاب في الآخرة على قدر ملازمة المعاصي في الدنيا؛ فمن لازمها بالكفر، ومات عليه، دامت له تلك الملازمة، ومن لازمها بالإصرار على الكبائر كانت له، على حسب تلك الملازمة.

فعلى العاقل أن يحسن مقره ومقامه، وأن يجتنب كل موطن تلحقه فيه الملامة، وأن يجتنب مجالس السوء والبدعة، ويلازم مجالس الطاعة والسنة.

وأن يسرع بالتوبة مفارقا الذنوب، وألا يصر على شيء من القبائح والعيوب.

وأن يكون سريع الرجوع إلى الله ولو عظم ذنبه وبلواه، فالله يحب التوابين ويغفر للأوابين جعلنا منهم أجمعين آمين." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 201، 202)

• وجاء في تفسر قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان: 72]

"في الإقبال على اللغو شغل للبال به، وتكدير للخاطر بظلمته، وتضييع للوقت فيه، ولكل كلمة تسمعها أو فعلة تشهدها أثر في حياتك وإن قل. وقد يعقبها ضدها فتزول بعدما شغلت وعطلت. وقد يردفها مثلها فتثبت وتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين.

وبقدر ما تلتفت إلى اللغو تلتفت عن كرمك، وبقدر ما يعلق بك منه ينقص من ذكائك. وبقدر ما تتساهل بالوقوف عليه تقرب من الدخول فيه، وإذا دخلت فيه واستأنست بأهله جرك إلى الزور وعظائم الأمور.

وللشر أسباب متواصلة، وأنساب متصلة يؤدي بعضها إلى بعض، فينتقل المغرور الغافل من خفيها إلى جليها، ومن صغيرها إلى كبيرها.

فالحازم من لم يسامح نفسه في قليلها، ويباعد كل البعد عنها وعن أهلها، وقد هدتنا هذه الآيات لنهتدي، وذكرت عباد الرحمن لنقتدي." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 232، 233)

• وكذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان: 74] " المقدَّمُ في الخير والكمال، المقتَدَى به فيهما إذا طلب الإمامة من حيث الخير والكمال نفسهما، ومن حيث حمل الناس عليهما بالقدوة الصالحة له فيهما؛ لأن فعل الخير والاتصاف بالكمال دعوة إليهما بالعمل، وهي أبلغ من الدعوة بالقول؛ ومن حيث انتشارهما في الناس وسعادة الناس بها. إذا طلب الإمامة من هذه الحيثيات فطلبه مشروع محمود، وهو طلب عباد الرحمن المذكور في الآية. وإذا طلب الإمامة والتقدم لأجل الترؤس والتقدم، فهذا طلب مذموم من عمل المتكبرين

لا من عمل المتقين.

فعلى الداعي أن يميز هذا التمييز ليخلص القصد في دعائه ويكون على صواب فيه." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 239)

• وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: 15، 16]

"وكما أن النور الكوني يجلو الموجودات الكونية للأبصار فكذلك كان محمد ﷺ ذلك النور الرباني، يجلو تلك الحقائق للبصائر.

وكما أن النور الكوني يظهر الموجودات الكونية، فلا يحرم منها إلا معدوم البصر، فكذلك كان محمد ﷺ ذلك النور الرباني، مجليا للحقائق للبشرية كلها، ولا يحرم من إدراكها إلا مطموسو البصائر، الذين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم.

وكما كان محمد ﷺ نورا تنبعث من أقواله وأفعاله وسيرته الأشعة الكاشفة للحقائق كذلك كان الكتاب الكريم الذي أنزله الله عليه، يبين بسوره وآياته وكلماته تلك الحقائق أجلى بيان.

فبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكتابه، تمت نعمة الله تعالى على البشرية كلها، بإظهار وبيان كل ما تحتاج إلى إظهاره وبيانه. ولما دعا الله إلى تصديق رسوله بالحجة العلمية الخلقية من بيانه وتجاوزه ذكر بهذه النعمة العظمى في قوله: ﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ ﴾" (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 329، 330)

هذا وقد انصبّت مباحث علم التصوف حول الأخلاق، بمداواة النفوس بتحليتها بالفضائل، وتخليتها من الرذائل، فكان موضوعه الرئيس إصلاح النفس الإنسانية، وهو المعبّر عنه بالإحسان في الحديث النبوي (البخاري، 1422هـ، صفحة 19/1) (مسلم، دون تاريخ، صفحة 36/1، 39) (ابن حنبل، 1321هـ/2001م، صفحة 434/1)

وهم بهذا قسموا العلوم استنادا على هذا الحديث إلى: علوم الفقه المتعلقة بالإسلام، وعلوم العقيدة المتعلقة بالإيمان، وعلم التصوف المتعلق بالإحسان. (قول، 2020، صفحة 80)

"والتمييز بين الإسلام والإيمان والإحسان، وهو الأكثر تداولا في مقالاتهم، فقد خاضوا في دلالاته، ووقعت الإشارة في أكثر من موضع إلى مرتكزات الإيمان استنادا إليه." (حاجي، 2021، 152)

و" لقد حدد الصوفية أن منهاج السلوك الصوفي هو التربية الوجدانية عبر التحقق بمقامات الأخلاق والمجاهدات، كالصمت، والتواضع، والتوبة، والذكر، والجود، وبسط الوجه، وغيره من مظاهر التربية الروحية، غير أن الإكسير الفعال الذي يقوم عليه طريق السالكين، وتتمحور حوله درجة الإحسان من الإيمان، هو حب الله الذي هو جوهر التصوف، وسمته الكبرى." (حاجي، 2021، صفحة 150)

وكذلك الأمر بالنسبة للإمام ابن باديس، فقد كان كثير التركيز على تزكية النفس، ومراقبتها في كل

الأمور حتى ترتقي في درجات الكمال، وهذه مقتطفات من تفسيره دالة عليه:

- أشار إلى تزكية النفس وإصلاحها في تفسير قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الإسراء: 25]، حيث قال:

"وجاء لفظ "الأوابين" جمعا لأواب، وهو فعال من أمثلة المبالغة، فدل على كثرة رجوعهم إلى الله. وأفاد هذا طريقة إصلاح النفوس بدوام علاجها بالرجوع إلى الله: ذلك أن النفوس بما ركب فيها من شهوة، وبما فطرت عليه من غفلة، وبما عرضت له من شؤون الحياة، وبما سلط عليها من قرناء السوء من شياطين الإنس والجن، لا تزال- إلا من عصم الله- في مقارفة ذنب، ومواقعة معصية صغيرة أو كبيرة، من حيث تدري ومن حيث لا تدري. وكل ذلك فساد يطرأ عليها، فيجب إصلاحها بإزالة نقصه، وإبعاد ضرره عنها. وهذا الإصلاح لا يكون إلا بالتوبة والرجوع إلى الله تعالى.

ولما كان طروء الفساد متكررا فالإصلاح بما ذكر يكون دائما متكررا.

والمداومة على المبادرة إلى إصلاح النفس من فسادها، والقيام في ذلك، والجد فيه، والتصميم عليه، هو من جهاد النفس الذي هو أعظم الجهاد.

ومن معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة: 222]. وهم الذين كلما أذنبوا تابوا، والتوبة طهارة للنفس من درن المعاصي." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 76، 77)

- وكذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [الإسراء: 37]، فقال:

"تربية النفوس تكون بالتخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل.

والعجب هو أساس الرذائل، فأوَّلُ الترك تركه، وهو المانع من اكتساب الفضائل فشرط وجودها تركه كذلك.

ومن لم يكن معجبا بنفسه، كان بمدرجة التخلق بمحاسن الأخلاق والتنزه عن نقائصها، لأن الإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص، فإذا سلم من العجب فإن تلك الجبلة تدعوه إلى ذلك التخلق والتنزه، فإذا نبه على نقصه لم تأخذه العزة، وإذا رغب في الكمال كانت له إليه هزة، فلا يزال بين التذكيرات الإلهية، والجبلة الإنسانية الخلقية، يتهذب، ويتشذب، حتى يبلغ ما قدر له من كمال.

ولهذه المعاني التي تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة- وهي أصول في علم الأخلاق- عنونا عليها بآية الأخلاق." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 109)

- ودعا إلى مراقبة النفس وتقويمها للسير دون اعوجاج عن الصراط المستقيم في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴾ [الإسراء:84]، فقال:

"فإن علمنا بأنه أعلم بمن هو أهدى سبيلا، يدعونا إلى المبالغة في تقويم سلوكنا، حتى نكون على الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، فإنه هو أهدى الطرق، وأقربها.

وما ذلك الصراط المستقيم إلا القرآن العظيم، والهدي النبوي الكريم وسلوك السلف الصالح، وذلك هو دين الإسلام." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 150)

• كما حث على السعي لتكميل النفس وتزكيتها بالاقتداء بالأنبياء والرسل في طهرهم وكمالهم،وهذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الفرقان: 20]، فقد قال:

" الأنبياء والمرسلون أكمل النوع الإنساني، وهم المثل الأعلى في كماله وقد كان أصل كمالهم بطهر أرواحهم وكمالها؛ فأقبل على روحك بالتزكية والتطهير، والترقية والتكميل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالإقتداء بهم، والاهتداء بهديهم. وقد قال الله تعالى لنبينا- عليه الصلاة والسلام: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[الأنعام: 90].

فاقرأ ما قصه القرآن العظيم من أقوالهم وأعمالهم، وأحوالهم وسيرهم، وتفقه فيه، وتمسك به؛ تكن إن شاء الله- تعالى- من الكاملين." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 165)

• كما تكلم عن درجة الإحسان التي لا يصلها المرء إلا بمراقبة نفسه ومجاهدتها، وهذا في ثنايا تفسيره وزيادة للبيان لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [الفرقان: 65]، حيث قال:

"«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (البخاري، 1422هـ، صفحة 19/1) (مسلم، دون تاريخ، صفحة 36/1، 39) (ابن حنبل، 1321هـ/2001م، صفحة 434/1)

وهذا الحديث يقتضي دوام المراقبة لله عند كل حركة وسكون، حتى لا تكون من العبد مخالفة فيهما، وحتى يأتي بعبادته على غاية الإتقان في صورتها وأتم الإخلاص بها.

وقد علمت أن مقتضى العبادة الشرعية الشعور بضعف وذل وفقر العبودية أمام عز وقوة وفضل الربوبية؛ فينبعث الرجاء والخوف في العابد، وهما مما يحملانه على تمام الإحسان في العبادة: بإتقانها والإخلاص فيها.

ثم من مقتضى مراقبة الله تعالى، مشاهدته: أي مشاهدة جلاله وجماله؛ جلاله بصفات القهر والبطش والملك والسلطان، وجماله بصفات الفضل والرحمة والإحسان؛ وبصدق المشاهدة لصفات الجلال يخاف العبد ويخشى؛ وبصدق المشاهدة لصفات الجمال يرجو ويطمع. فصدق الشهود لا بد معه من الرجاء والخوف." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 215)

وبهذا يُلحظ مدى تأثير الفكر الصوفي على تفسير الإمام ابن باديس، وكيف أن الإمام سار فيه مسارا وسطا عدلا قدوته فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

4. الإمام ابن باديس ومحاربته للطرقية وأهل الضلال

لقد شنّ الإمام ابن باديس في تفسيره حربا شعواء على الطُرقية وأهل الضلال، وكان شديد اللهجة معهم، دون أن يخرج عن السمت القرآني والنهج النبوي في الدعوة للحق، باعتماده على الحجج والبراهين مراعيا في نقلها السهولة واليسر في الطرح، خاصة أن الطائفة التي كان يدعوها، ويحاول إصلاحها، وإعادتها إلى الطريق السويّ، هم شريحة كبيرة من المجتمع الجزائريّ الذي كان يعيش تحت وطأة الجهل والابتعاد عن الهدي الإسلامي السويّ بسبب الاستعمار وأفاعيله.

يقول عمار طالبي: "لقد سيطرت الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي، والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، سيطرة مذهلة، فبلغ عدد الزوايا في الجزائر 349 زاوية، وعدد المريدين أو الإخوان 295000 مريد، والفقهاء الذين عرفوا بمعارضتهم الصوفية أصبحوا بدورهم طرقيين، فساد الظلام، وخيم الجمود، وكثرت البدع، واستسلم الناس للقدر، ... وهذه الظاهرة الاجتماعية أدت إلى تعطيل الفكر وشلّ جميع الطاقات الاجتماعية الأخرى." (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 18/1)

وقد كانت أغلبية أتباع الطرق الصوفية ترجع إلى طوائف ثلاث:

ـ الطائفة العليوية التي يرأسها الشيخ أحمد بن عليوة في مستغانم، وهي طائفة متشعبة عن الطريقة الدرقاوية.

ـ طائفة درقاوية أخرى يرأسها غلام الله في مدينة تيارت يدعو صاحبها إلى سياسة الاتفاق الديني بين الإسلام وفرنسا.

ـ طائفة التيجانية تتكون من كبار الموظفين والأغنياء والتجار، وقامت بدعاية بلغ نشاطها باريس، والواقع أن هذا الفرع قوي في مراكش أكثر من الجزائر.(الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 53/1، 54)

"ولا يمكن بهذا الصدد أن ننسى الحركة الصوفية الإصلاحية الثورية، وهي حركة محمد بن علي السنوسي التي اعتقد صاحبها أن الدعوة الأخلاقية والتجديد الروحي هما الأساس للتحرر من السلطة الأجنبية." (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 28/1)

وقد وصف الإمامُ ابن باديس الإمامَ أحمد الشريف السنوسي، بأنّه الصوفي السنّي، والإمام المجاهد، وأنّه كان على جانب عظيم من التمسك بالكتاب والسنة والتخلق بأخلاق السلف الصالح، وأنّ دعوته إلى الله وإرشاده للعباد كانت بهدايتهما، وأنّ تربيته لأتباعه كانت مبنية على التفقه في الدين، والتزام العمل به، والزهد، والصبر، وحفظ الكرامة. (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 48/3)

وهذه الطريقة أضعفتها المجازر التي سلطتها عليها إيطاليا، وكادت تؤدي بها. (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 54)

وعليه فـ "إن الاستعمارئن الطرقية وفرنسا تعاونا على تجهيل الشعب الجزائري فترة طويلة، ومن بين آثار هذا التجهيل انعدام المفاهيم الصحيحة للإسلام، وما يتصل به من عقائد وأخلاق وأحكام وغيرها." (العرابي و البيرة، 1408-1409هـ، صفحة 109)

وفيما يلي عرض لجملة من ردود الإمام ابن باديس من خلال تفسيره على الطرقية، وحملته على كثير من بدعهم وتصرفاتهم وأفعالهم المنافية للشريعة وأصولها:

1.4. محاربته تعظيم أصحاب القبور

من البدع التي انتشرت على عهد الإمام ابن باديس تعظيم أصحاب القبور والتوسل بهم وغيره من المظاهر التي حاربها الإمام، ونستشف هذا من تفسيره في أقواله الآتية:

• "وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص، والرمز، والطواف حول القبور، والنذر لها، والذبح عندها، ونداء أصحابها، وتقبيل أحجارها ونصب التوابيت عليها، وحرق البخور عندها، وصب العطور عليها ... فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها، ليست من سعي الآخرة الذي يسعاه محمد ﷺ وأصحابه من بعده، فساعيها موزور غير مشكور." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 56)

• وفي سياق تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: 108]، وحديثه عن البراءة من المشركين قال: (وهذه البراءة والمباينة- وإن كانت مستفادة من أنه يدعو إلى الله وينزهه- فإنها نص عليها بالتصريح، لتأكيد أمر مباينة المشركين، والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جلية وخفية.

في جميع مظاهر شركهم، حتى في صورة القول، كما (شاء الله وشاء فلان)، فلا يقال: و(شاء فلان) ... أو في صورة الفعل: كأن يسوق بقرة أو شاة مثلا إلى ضريح من الأضرحة، ليذبحها عنده، فإنه ضلال.

فضلا عن عقائدهم: كاعتقاد أن هناك ديوانا من عباد الله يتصرف في ملك الله وأن المذنب لا يدعو الله وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات، وذلك الميت يدعو له الله!!

لتأكيد أمر المباينة للمشركين في هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا، وللبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره، وجليه وخفيه.) (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 317، 318)

فبناء القباب على القبور، ووقد السرج عليها، والذبح عندها لأجلها، والاستغاثة بأهلها من أعمال الجاهلية، ومضاهاة لأعمال المشركين، فمن فعله جهلا يعلم، ومن أقره ممن ينتسب إلى العلم فهو ضال مضل.

والأوضاع التي وضعتها الطرقية بدعة لم يعرفها السلف، ومبناها كلها على الغلو في الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ، إلى ما هناك من استغلال ... ومن تجميد للعقول، وإماتة للهمم، وقتل للشعور، وغير ذلك من الشرور. (الطالبي، 1317هـ/1997م، صفحة 133/3)

2.4. محاربته الإفراط في الزهد بالابتعاد عن التزوج وخدمة الأهل، وكذا التخلي عن الطيبات

ذهب كثير من الصوفية الطرقية إلى أن كمال العبادة بالتبل لله سبحانه والابتعاد عن الزواج والتخلي عن خدمة الأهل التي تشغل وتبعد عن عبادته، وكذا بتحريم طيبات الأكل عن نفسه وكبحها عن شهواتها.

فتجد الإمام متصديا لهم ومبينا للحق الذي جاء في الهدي الرباني، فمن ذلك نذكر:

• "التزوج وطلب النسل هو السنة: سنة النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- وسنة أصحابه عليهم

الرضوان، وسنة عباد الرحمن، وليس من شريعته الحنيفية السمحة؛ الرهبانية، والتبتل.

وقد رأى قوم من الزهاد رجحان الانقطاع إلى العبادة على التزوج والاشتغال بالسعي على الزوج والذرية، فرد عليهم أئمة الدين والفتوى بأن في التزوج اتباعا للسنة، وفي السعي على الأهل ما هو من أعظم العبادة.

وفي التزوج تكثير سواد الأمة والمدافعين عن الملة والقائمين بمصالح الدين والدنيا، وفي هذا ما فيه من الأجر والمثوبة.

وفي التبتل مخالفة السنة، وانقطاع النسل، وضعف الأمة وتعطيل المصالح، وخراب العمران، وكفى بهذا كله شرا وفسادا!!" (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 237، 238)

• "تتوقف الأعمال على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، ولهذا قدم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل.فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم.

وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها كما يفعله متصوفة الهنادك، ومن قلدهم من المنتسبين للإسلام.

والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- وأصحابه رضي الله عنهم، وقد بين ذلك أئمة السنة والأثر ـ رحمهم الله ـ، وقد جوده مالك ـ رضي الله عنه ـ فى كتاب الجامع من الموطأ.

وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن، فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن، فتفسد الأعمال." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 355)

3.4. محاربة التجرد في العبادة عن الثواب والعقاب

إن "غلو بعضهم ـ الطرقية ـ في العبادة المجردة عن الثواب والعقاب شيء خارج عن الإسلام، وهي في نظره عقائد وفلسفات خيالية من خيالات وحدة الوجود الهندية، شغل بها بعض الصوفية أنفسهم، وجعلوها أعلى مراتب العبودية متأولين لها قوله تعالى: (يريدون وجه الله)." (الجزار، 1999، صفحة 34)

وقد رد عليهم من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْأَخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الإسراء: 19]، "أن قصد الثواب والجزاء على العمل لا ينافي الاخلاص فيه لله؛ لأن الإخلاص هو أن تجعل عبادتك لله وحده، ورجاؤك الثواب وطمعك فيه، وحذرك العقاب وخوفك منه، هما مقامان عظيمان لك في جملة عبادتك، يجب عليك أن تكون فيهما أيضا مخلصا، لا ترجو إلا ثوابه، ولا تخاف إلا عقابه.

وإذا أخلصت في رجائك وخوفك هانت عليك نفسك فقمت في طاعته مجاهدا لا يردك معارض، ولا تأخذك في الله لومة لائم. وصغرت في نظرك العوالم كلها فنطقت بقولك: "الله أكبر" نطق عالم واجد مشاهد.

والمقصود: أن رجاء الثواب وخوف العقاب روحهما الإخلاص فكيف ينافيانه؟.

فالعامل الراجي للثواب الخائف من العقاب المخلص في الجميع، آت بأربع عبادات: عمله، ورجائه، وخوفه، وإخلاصه، وهو روح الجميع.

وقد جاء في القرآن ثناء شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل، عليه وعليهم الصلاة السلام هكذا: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ ﴾ [الشعراء: 82].

وذكر تعالى دعاء عباد الرحمن الصالحين هكذا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ ﴾ [الفرقان: 65].

وفي دعاء القنوت: «نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد» إلى غير هذا من أدلة كثيرة تؤيد ما ذكرناه." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 52)

وقال في موضع آخر أثناء تفسير قوله تعالى: (﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٦٦ ﴾ [الفرقان: 65، 66]

"زعم قوم أن أكمل أحوال العابد، أن يعبد الله تعالى لا طمعا في جنته، ولا خوفا من ناره.

وهذه الآية وغيرها رد قاطع عليهم.

ومثلها قول إبراهيم- عليه وعلى آله الصلاة والسلام-: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ ﴾ [الشعراء: 82]، وفي نصوص لا تحصى كثرة.

وزعموا أن كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه، أو طمع في ثوابه. وأخطأوا فيما زعموا:

فإن العبادة مبناها الخضوع والذل والافتقار، والشعور بالحاجة والاضطرار. وإظهار العبد هذه العبودية بأتمها، ومن أتم مظهر لها، أن يخاف، ويطمع، كما يذل، ويخضع؛ ففي إظهار كمال نقص العبودية القيام بحق الإجلال والتعظيم للربوبية.

ولهذا كان الأنبياء- عليهم وآلهم الصلاة والسلام- هم أشد الخلق تعظيما لله، وأكثرهم خوفا من الله، وتعوذا من عذاب الله، وسؤالا لما عند الله، وكفى بهم حجة وقدوة.

وإن هذه المقالة تكاد تفضي إلى طرح الرجاء والخوف، وعليهما مبنى الأعمال، لما فيهما من ظهور العبودية بالذل والاحتياج.

ومن دعاء القنوت الثابت المحفوظ: «وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخاف عذابك الجد» وهذا ضروري في الدين.

ولكن مثل هذه المقالة إنما يجر إليها:

الغلو وقلة الفقه في الدين، وفي الكتاب والسنة، وما كان عليه هدي السابقين الأولين." (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 201)

ثم أردفه بزيادة في البيان للآية بعنوان: أيهما أكمل العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب؟ أم العبادة دونهما؟ وقد كانت في خمسة عشر صفحة، كلها ردا على القائلين: إن العبادة دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب هي أكمل العبادات. (باديس، 1424هـ/2003م، صفحة 202- 216)

وهكذا يمضي الإمام ابن باديس، فما من بدعة أو ضلالة ابتدعتها الطرقية إلا والإمام يتعقبها في تفسيره ويقوضها، ويبيّن بالدليل والبرهان من القرآن والسنة الصوابَ في المسألة دون خروج عن آداب الجدال والمناظرة، بل لم يكن يذكر هذه الفئة باسمها، وإنما كان يعرض بها. (العرابي و البيرة، 1408-1409هـ، صفحة 122)

ف" هو يصحح التصوف بالقرآن وأوضاعه الشرعية، وفي الوقت نفسه ينفي عنه ما زيد فيه باسمه من الأوضاع البائسة والأفكار البالية." (جلول، 1441هـ/2019م، صفحة 314، 315)

5. خاتمة

ونتوصل في الأخير إلى أن الإمام ابن باديس قد سار في تفسيره وفق أصول متينة أصيلة، فهو لم يهمل التفسير النقلي، ولا اللغوي، ولا العقلي، وهذا الأخير الذي توسع فيه الإمام ابن باديس، فكان تفسيره منطقيا متسلسلا، وفيه ظهرت نزعة الإمام الصوفية السنيّة السلفية المعتدلة، التي تنهل من معين القرآن الكريم، ومشكاة النبوة، وما سار عليه السلف الصالح، محاربا بذلك الصوفية الطرقية، وكل ضلالة وبدعة مختلقة تشوه الدين وتنفر الناس منه.

ولعل من أهم التوصيات التي تصدر عن هذه الورقة البحثية دعوة الباحثين إلى العناية بالمصطلحات والمضامين الصوفية المعتدلة التي طرحها ابن باديس في تفسيره لكثير من الآيات، والتي كان يدعو من خلالها إلى تقويم السلوك البشري وتهذيب النفس والسمو بها في معارج الاستقامة والصلاح.

والاهتمام كذلك بالفكر الصوفي المعتدل وإبراز جوانبه المشرقة، وبيان الصور والمظاهر العالقة في أذهان الناس عنه من التي حاربها الإمام ابن باديس في المجتمع الجزائري.

6. قائمة المراجع

- إحسان إلهي ظهير. (1426هـ/2005م). دراسات في التصوف. مصر: درا الإمام المجدد.
- أحمد ابن حنبل. (1321هـ/2001م). مسند أحمد. مؤسسة الرسالة.
- أحمد محمود الجزار. (1999). الإمام المجدد ابن باديس والتصوف. الإسكندرية، مصر: منشأة المعارف.
- أيمن حمدى. (2000م). قاموس المصطلحات الصوفية. القاهرة: دار قباء.
- بن الحجاج مسلم. (دون تاريخ). صحيح مسلم. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- جلول بلحاج. (1441هـ/2019م). المعالجة الصوفية للحقائق القرآنية عند المفسرين الجزائريين. المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد: 15، العدد: 3، الصفحات 297-320.
- زهرة بن يمينة. (2015). أثر الاتجاه الصوفي في تفسر القرآن عند فخر الدين الرازي. الذاكرة، المجلد: 3، العدد: 1، صفحة 241 ـ 263.
- عامر علي العرابي، وسليمان صادق البيرة. (1408-1409هـ). الإمام عبد الحمد بن باديس ومنهجه في

الدعوة من خلال آثاره في التفسير والحديث (رسالة ماجستير). المملكة العربية السعودية: جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين.

- عبد الحميد ابن باديس. (1424هـ/2003م). تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير. بيروت: دار الكتب العلمية.
- عبد الرزاق الكاشاني. (1413هـ/1992م). معجم اصطلاحات الصوفية. القاهرة: دار المنار.
- عمار الطالبي. (1317هـ/1997م). آثار ابن باديس. الجزائر: الشركة الجزائرية للحاج عبد القادر بوداود.
- عمار طالبي، وعبد المالك حداد. ابن باديس من خلال الإجازات والوثائق وتقارير المخابرات الفرنسة.
- مباركة حاجي. (2021). المقاصد التربوية للتصوف ودورها في إصلاح المجتمع. الشهاب، المجلد: 7، العدد: 1، الصفحات 149-160.
- محمد بن إسماعيل البخاري. (1422هـ). صحيح البخاري. دار طوق النجاة.
- محمد علي فركوس. (1435هـ/2014م). تحفة الأنيس شرح عقيدة التوحيد للإمام ابن باديس. الجزائر: دار العواصم.
- معمر قول. (2020). المضامين التربوية للتصوف الإسلامي ـ قراءة تحليلية في التعاريف الاصطلاحية للتصوف الإسلامي ـ. المنهل، المجلد: 6، العدد: 2، الصفحات 75-98.